العنصرية العلمية للأنثروبولوجيا وأيديولوجية الشخصية الإفريقية خلال القرن 19

أ. ناصر كرم رمضان

باحث في الفكر السياسي والثقافة الإفريقية –
كلية الدراسات الإفريقية العليا – مصر

لا يزال مفهوم الشخصية الإفريقية يحتاج إلى مراجعة دقيقة إذا ما حاولنا قراءته في سياقاته المختلفة، بدايةً من محاولة طمس هذه الشخصية من خلال ادعاءات الأنثروبولوجيا بدونية العرق الزنجي، ومحو خصوصيتها، والنيل من قيمتها في التاريخ الإنساني، وهو ما حدَا بالمفكرين الأفارقة في الشتات – والذين نشؤوا وتعلموا في بريطانيا والولايات المتحدة والكاريبي– أن يواجهوا تلك الادعاءات الأنثربولوجية، وأن يدحضوا حجج هذه الادعاءات ويتنصلوا منها، وكان ذلك لأول مرّة في القرن التاسع عشر.

يسعى هذا المقال لإلقاء الضوء على أهم المساعي الفكرية لعلماء الأنثروبولوجيا، في القرن التاسع عشر وما قبله، من أجل وضع تسلسلية هرمية للأعراق من خلال مراحل تطورية معقدة، والمحاولات التي جرت في مقابل ذلك من جانب بعض مفكري هذه الحقبة من ذوي الأصول الإفريقية لرفض تلك الأفكار، وتقديم نظرية عرقية متكاملة عوضاً عنها، تمثل أساساً لفهم ما يُعرف بالشخصية الإفريقية، ومدى انعكاس ذلك على الفكر الإفريقي فيما بعد.

أولاً: الأنثروبولوجيا واختراع العرق الأبيض:

الأنثروبولوجيا هي أحد العلوم التي تقوم بدراسة البشر بشكل عام، من حيث تاريخهم التطوري، وسلوكهم، وكيفية تكيفهم مع البيئات المختلفة وتواصلهم واختلاطهم معاً؛ بالإضافة إلى منجزاتهم المادية والفكرية، وهو ما جعلها أكثر العلوم شمولية.

كما أن الأنثروبولوجيا لا تختص بدراسة فترة زمنية معيّنة أو حقبة محددة من حقب التاريخ؛ لكنها تهتم بدراسة نمو الحضارات والمجتمعات البشرية وسلوكياتها، حيث أثبتت الكثير من الأبحاث والدراسات بأن جميع البشر لديهم تشابه فيما بينهم من الناحية الحيوية والعضوية.

ومن خلال المقارنة بين الحضارات أو الثقافات، والوقوف على أوجه الاختلاف أو التشابه فيما بينها، تسعى الأنثروبولوجيا لإيجاد القوانين أو المبادئ الحاكمة لتَكوُّن المجتمعات والثقافات البشرية وتطورها[1].

سعى علماء الأنثروبولوجيا إلى توفير أساس أيديولوجي لتبني سياسة التوسع الاستعماري

لذلك اهتم علماء ومفكرو الأنثروبولوجيا بالبحث عن المبادئ الحاكمة لتطور الإنسان فيزيقياً وثقافياً، في محاولتهم للإجابة عن التساؤلات المطروحة حول التمايز بين الأنماط البشرية المختلفة؛ ومحاولة تبرير الدونية؛ على الرغم من الاتفاق على الانتماء إلى أصل واحد مشترك. وإذا لم يكن هذا التنوع نتيجة فروق متوارثة بيولوجياً؛ فما هو السبب في تلك الفروق الواسعة المتعددة في اللغات والثقافات، وما هي طبيعة هذه الثقافات وكيف تتغير؟ وما هي العلاقة بين الثقافات وشخصية الفرد؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات يجب إجراء دراسات ومقارنات لعديد من الثقافات البشرية بقدر ما تستطيع البحوث ذلك[2].

لكن المفاهيم الأنثروبولوجية لا يسعها أن تُقدّم صورة تقريبية مصحوبة ببُعد زمني يلقي الضوء على تغيّر تلك الصورة عبر الزمن، لكن إذا ما تمت المحاولة لتقسيم تلك الآراء التي

(١) محمد الجوهري وآخرون، الأنثروبولوجيا الاجتماعية قضايا الموضوع والمنهج، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية، ٢٠٠٤)، ص (٥-٦).

(٢) المرجع السابق، ص٩.

كانت سائدة في هذه الحقبة، حول النظر إلى الشخصية الإفريقية، فلن تخلو من ثلاثة تقسيمات: أنثروبولوجيا فيزيقية أو بيولوجية اعتمدت على الملاحظات المورفولوجية الفيزيقية الموحدة عن الهياكل العظمية، أو أنثروبولوجيا اجتماعية حيث دراسة البناء الاجتماعي للجماعة أو المجتمع، وهي الأقرب إلى علم الاجتماع، وأخيراً أنثروبولوجيا ثقافية، وهي التي تدرس أصول المجتمعات والثقافات الإنسانية وتاريخها، وتتبع نموها وتطورها، ودراسة بناء الثقافات البشرية وأدائها لوظائفها مع اختلاف المكان والزمان[١].

ومع اتصال أوروبا بإفريقيا في أواخر القرن الثامن عشر، وطوال القرن التاسع عشر حتى القرن العشرين، ظهرت المشكلة الممتدة والمتعلقة بهوية إفريقيا والأفارقة، والتي لا تزال حيوية حتى اليوم. ولأن الاتصال الثقافي هو أمر ذو اتجاهين فقد كان اجتماع حضارتين (أوروبية وإفريقية) عملية ثنائية الاتجاه. لكن التقليد الثقافي الأوروبي عمل على تشويه وتلوين مرشحات الثقافة؛ والتي من خلالها تحددت نظرة الأوروبيين إلى العالم وبالأخص إفريقيا.

ونظراً للتصور السائد بأن الحضارة العالمية تعود جذورها الأولى إلى أوروبا؛ فقد ترسخ لدى الأوروبي تصورٌ بأن الثقافة الأوروبية هي نفسها ثقافة العالم، ومن هنا جاء التوهم بأنها تتفوق على الحضارات الأخرى[٢].

ومن ثمّ تم تقديم العديد من النظريات التفصيلية للعرق والثقافة، التي أصبحت مقبولة لدى معظم الأوروبيين خلال القرن التاسع عشر، والتي قدمت مبررات وتأكيدات على هيمنة المفاهيم العنصرية التي ارتكزت عليها نظريات العلم والتطور والثقافة والحضارة. ما أدى إلى تنامي الأحكام المسبقة العميقة المتأصلة في التقاليد الثقافية الأوروبية تجاه ذوي البشرة الداكنة، لتُصبح في نهاية المطاف معتقدات تنظر إلى طبيعة العلاقة بين الأعراق القائمة من منظور التفوق الأبيض المزعوم، وافتراض مهمة الرجل الأبيض الحضارية[٣].

اصطدمت هذه النظريات في البداية بالإيمان المسيحي الأرثوذكسي، والذي استند إلى رواية الكتاب المقدس بوحدة الجنس البشري من نسل آدم وحواء، وهو ما شكل عقبة قوية أمام تطوير أيديولوجية عنصرية متماسكة ومقنعة.

وخلال القرنين السادس والسابع عشر؛ ظهرت أفكار أكثر تحررية لأمثال «جيوردانو برونو»[٤] Giordano Bruno (١٥٤٨-١٦٠٠م) و«كريستوفر مارلو»[٥]

(١) المرجع السابق، ص (١٠-١٧).

(٢) Ricoeur, Paul. History and truth. Northwestern University Press, 1965, p.277.

(٣) MUDIMBE, V.Y.: The Invention of Africa. Gnosis, Philosophy, and the Order of Knowledge. Bloomington and Indianapolis, Indiana University Press, 1988, p.12.

(٤) راهب وفيلسوف إيطالي شهير، انتقل من الدراسة اللاهوتية إلى تبني أفكار فلسفية، حيث اعتنق نظرية «كوبرنيكوس» عن دوران الأرض، مما عرضه للمحاكمة الكنسية واتهامه بالهرطقة لإنكاره العقائد الكاثوليكية الأساسية.

(٥) كاتب مسرحي وشاعر إنجليزي، ويعتبر من أهم كتاب عصر النهضة، درس علم اللاهوت، واختير باحثاً في بلاط الملكة إليزابيث الأولى، تجاوز مارلو عصر النهضة ليجسد صراع الإنسان مع القيود التي تحد من حريته، كانت مسرحياته وكأنها ملحمة يكتشف فيها الإنسان أنه لن يكون

Christopher Marlowe (١٥٦٤-١٥٩٣م)، والذين تبنوا النظرية القائلة بأن للبشرية ثلاثة أسلاف؛ مبررين ذلك تبريراً دينياً أيضاً من الكتاب المقدس؛ وبأن اللعنات على السود كانت بسبب ذنوب «حام». ونظراً لأن هذه المفاهيم كانت تفتقر إلى الإعلان والعرض المنظم الذي يمنحهم سلطة أيديولوجية كبيرة، فقد ظلت في إطار معتقدات أو أساطير شعبية تسببت في تخفيف الإحساس بالذنب تجاه تجارة الرقيق. لكن الكنائس في معظمها استمرت في التأكيد على أن السود لديهم أرواح شريرة يجب أن يتخلصوا منها، وبالتالي كانوا أهدافاً مشروعة للتنصير[١].

ومع عصر التنوير والفكر التنويري نمت العنصرية الحديثة القائمة على التصنيف الفيزيائي؛ ففي عام ١٧٣٥م أدرج عالم الطبيعة السويدي كارل لينيوس Carl Linnaeus (١٧٠٧-١٧٧٨م) البشر كأنواع داخل جنس الرئيسيات، وحاول تقسيم هذه الأنواع إلى أصناف[٢]. ثم كان التصنيف الأكثر موثوقية للأعراق الذي أنتجه عصر التنوير هو كتاب «يوهان فريدريش بلومنباخ» Johann Friedrich Blumenbach (١٧٥٢-١٨٤٠م) (حول الأصناف الطبيعية للبشرية On the Natural Varieties of Mankind، والمنشور عام ١٧٧٦م.

واعتُبر «بلومنباخ» بهذا المؤلف والد الأنثروبولوجيا الفيزيائية، لم يكن لدى «بلومنباخ» شك في أن جميع البشر ينتمون إلى نوع واحد، وأنهم من أصل مشترك بعيد[٣]. طُبّقت تعاليمه في علم التشريح المقارن على تصنيفه للأعراق البشرية، وصرح بتقسيم البشر إلى خمسة أنواع؛ وهم: القوقازيون، والمنغوليون، والإثيوبيون (السود أو الأفارقة)، والأمريكيون، والماليزيون. وخلُص إلى أن لكل عرق خصائص جسدية بحتة عوضاً عن السمات الفكرية أو الأخلاقية، ودحض الادعاء الشائع بأن الأفارقة «أقرب إلى القردة من الرجال الآخرين»، ولكنه كأوروبي أبيض، لم يستطع الهروب من التحيز العرقي؛ فكان أول من نسب العرق الأبيض إلى القوقازيين، وذهب إلى افتراض أن أولئك الذين أُطلق عليهم اسم «القوقازيين» هم العرق البشري الأصلي الذي

تقترح هذه الدراسة إجراء تحقيق عن الشخصية الإفريقية كوسيلة لفهم وتشكيل سلوك القيادة من أجل الأمن والتنمية في القارة

حراً أبداً ولن يحقق ما يسعى إليه. وهذه هي مأساة الإنسان في نظر «مارلو»، أي صراعه مع النظام الكوني والسياسي والديني والاجتماعي الذي يخنقه.

(١) Fredrickson, George M. Racism: A short history., 2002. p.51

(٢) Groves, Colin P. “Primate Taxonomy: Inflation or Real?” Annual Review of Anthropology, vol.43, 2014, p.28

(٣) Schiebinger, Londa. “The Anatomy of Difference: Race and Sex in Eighteenth-Century Science.” Eighteenth-Century Studies, vol.23, no.4, 1990, pp.389-390

اختلف أو انحرف عنه الآخرون[١].

ومهما كانت أهدافهم؛ فقد فتح «لينوس» و «بلومنبـــاخ» وغيرهم من علماء الأعراق في القرن الثامن عشـــر الطريق إلـــى عنصرية علمانيـــة أو علمية من خلال اعتبار البشـــر جـــزءاً من مملكة الحيوان، واســـتبدلوا وجهة النظر التي جاءت فـــي الكتاب المقدس بأن البشـــر كأبناء لله يتمتعون بقـــدرات روحية تميزهم عن باقي المخلوقات. ولعل ســـعيهم هذا لـــم يكن الأول؛ فقد كانـــت الإصدارات السابقة من «سلسلة الكينونة العظيمة»[٢]، قد أخذت الفكر البشري في هذا الاتجاه[٣].

ثـــم جـــاء «الكونـــت دي بوفـــون» The Comte De Buffon (١٧٠٧-١٧٨٨م) أعظـــم علماء التنوير الطبيعييـــن، ليُعبر عن تبنيه لوجهة النظر التي كانت ســـائدة وقتها؛ وذلك عندما أرجع الاختلافات في لون البشرة إلى تأثيرات المناخ علـــى الأعراق المختلفة، فبالنسبة لـ«بوفون» بدَا واضحاً أن التباين بين التصبغ الأسود والأبيض يمكن أن يُعزى بشكل رئيس إلى التأثيرات المختلفة للشمس ودرجة الحرارة بيـــن إفريقيا وأوروبـــا[٤]. لكن هذا التفســـير البيئي للاختلافات العرقية لم يمنع علماء الطبيعة، مثل «لينيوس» أو «بوفون»، من تراتبيـــة الأعراق، حيـــث إن «بوفون» افترض كذلـــك أن الأوروبيين متفوقـــون فكرياً على الأفارقة[٥].

وفـــي مؤلفـــه (مخطط تاريخ البشـــرية) Outline of the History of Humanity، المنشـــور في عـــام ١٧٩٨م، ربط الفيلســـوف الألماني «كريستوف مينرز» Christoph Meiners (١٧٤٧-١٨١٠م) بين الجمال الجســـدي والذكاء فـــي ترتيبه للأنواع البشـــرية، وهذا راجع إلى- من وجهة نظـــره- أن الأشـــخاص «حســـني المظهر» متفوقون في كلا الجانبين، في حين أنه اعتبر «الشعوب الأكثر قتامة وملونة»، «قبيحة»، وفي أحسن الأحوال «شبه حضارية»[٦].

وعلـــى الرغم من أن النظريـــات العرقية للقرن الثامن عشر أنشـــأت إطاراً للعنصرية البيولوجية في القرن التاسع عشر؛ فإن الكثير من مفكري الإثنولوجي في عصر التنوير كانت آراءهم لا تستند إلى أدلة علمية ذات موثوقية حتى قبل منتصف القرن التاســـع عشر، وهو ما اعتبـــره «مايكل أداس» Michael Adas

(١) Schiebinger, Londa. “The Anatomy of Difference: Race and Sex in Eighteenth-Century Science.” Eighteenth-Century Studies, vol.23, .no.4, 1990, p.390

(٢) Eaton, Charles Edward. “The Great Chain of Being.” College English, vol. 46, no.3, 1984, .pp.254–255

(٣) Look “Taxonomies of Yellow: Linnaeus, Blumenbach, and the Making of a ‘Mongolian’ Race in the Eighteenth Century.” Becoming Yellow: A Short History of Racial Thinking, by Michael Keevak, Princeton University Press, PRINCETON; OXFORD, 2011, pp. 43–69. And Machery, Edouard, and Luc Faucher. “Social Construction and the Concept of Race.” Philosophy of .Science, vol. 72, no. 5, 2005, p.1209

(٤) DiPiero, Thomas. “MISSING LINKS: WHITENESS AND THE COLOR OF REASON IN THE EIGHTEENTH CENTURY.” The Eighteenth .Century, vol. 40, no. 2, 1999, p.155

(٥) NELSON, WILLIAM MAX. “Making Men: Enlightenment Ideas of Racial Engineering.” The American Historical Review, vol.115, no.5, .2010, pp. 1380–1381

(٦) Link, Anne-Marie. “Art, History and Discipline in the Eighteenth-Century German University.” RACAR: Revue D›art Canadienne /Cana- .dian Art Review, vol.28, 2001, pp.22–23

المؤرخ الأمريكي المعاصر؛ بأن «الأوروبيين بشكل عام لم يكن توغلهم وهيمنتهم على أجزاء أخرى من العالم نتيجة إحساسهم بتفوقهم البيولوجي الفطري؛ لكنه كان ثمرة مزايا ثقافية وتكنولوجية مكتسبة»[١].

ثانياً: أنثروبولوجيا القرن التاسع عشر ودونية الشخصية الإفريقية:

تلقى علم الأنثروبولوجيا دفعته الكبرى بعد الكشوف الجغرافية الكبيرة في القرن السادس عشر وما بعده، حتى تطور وتعددت أقسامه وفروعه في القرن التاسع عشر؛ فما إن كتب الفرنسي «الكونت آرثر دي جوبينيو» Arthur de Gobineau (١٨١٦-١٨٨٢م) في خمسينيات القرن التاسع عشر كتاباً عن (عدم المساواة بين الأعراق البشرية) An Essay on the Inequality of the Human Races؛ حتى قامت مفاهيم عنصرية وهرمية للأعراق البشرية هيمنت على الفكر العلمي والشعبوي لأكثر من مائة عام، ناقشت هذه المفاهيم التنوع الأخلاقي والفكري لكل عرق، وأشارت بشكلٍ خاص إلى تأثيراتها على التاريخ الإنساني والسياسي للبشرية[٢].

وسعى علماء الأنثروبولوجيا إلى توفير أساس أيديولوجي لتبني سياسة التوسع الاستعماري؛ ففي عام ١٨٦٣م قدّم «جيمس هانت» James Hunt (١٨٣٣-١٨٦٩م)، الذي كان رئيساً للجمعية الأنثروبولوجية، بحثاً بعنوان «حول مكان الزنوج في الطبيعة»[٣] On the Negro's Place in Nature، زعم فيه أن الزنوج كانوا أدنى منزلة عقلياً من الأوروبيين، وأنه يجب تصنيفهم على أنهم نوع من عرق أقل من الأوروبيين، ووافقه أعضاء آخرون بارزون في الجمعية على هذه الآراء؛ مثل «ريتشارد بيرتون» Richard Burton (١٨٢١-١٨٩٠م) المستكشف والمستشرق المشهور، و«فريدريك دبليو فارار» Frederic W. Farrar (١٨٣١-١٩٠٣م) عالم اللغويات وعميد «كانتربيري» Canterbury لاحقاً، والصحافي «وينوود ريد» Winwood Reade (١٨٣٨-١٨٧٥م). والذين أكدوا على أن تطور العرق الأدنى هي عملية لا يمكن تسريعها، ومن ثم فإن أي فكرة عن تعزيز الحضارة في إفريقيا كانت سخيفة. وهو ما عبّر عنه «بيرتون» في عام ١٨٦٤م بأن الأفارقة لم يكن لديهم هذه «القدرات العقلية الحالية، ولكنهم اكتسبوها من مالكيهم»[٤].

وظلت هذه النظرة مسيطرة على الكتابات فيما بعد، واهتمت بما عُرف تاريخياً باسم «التطورية الثقافية» Cultural Evolutionism، متأثرين بالنظرية «الداروينية» عن التطور الحيوي، من أجل تطبيقها على الإنسان والمجتمعات البشرية، فقاموا بدراسة الثقافة الإنسانية من خلال البحث عن الأصول التاريخية للسمات الثقافية، والاعتقاد بأن الثقافة ما هي إلا

(١) Michael Adas, Machines as the Measure of Men: Science, Technology, and Ideologies of Western Dominance (Ithaca, 1989), p.291.

(٢) Gobineau, Arthur de, and Adrian Collins Translator. Inequality of human races. William Heinemann, London, 1915, pp.xiv-xv.

(٣) Hunt, James. "On the Negro›s Place in Nature." Journal of the Anthropological Society of London, vol. 2, 1864, pp.xv-lvi.

(٤) Helly, Dorothy O. "‹Informed› Opinion on Tropical Africa in Great Britain 1860-1890." African Affairs, vol. 68, no. 272, 1969, p.199.

تراكم للنشاط المعرفي للإنسان عبر الزمن.

وفي هذا الإطار نشر «إدوارد تايلور» Edward Burnett Tylor (١٨٣٢-١٩١٧م) كتابه (بحوث في التاريخ المبكر للجنس البشري) Researchers into the Early History of Mankind ١٨٦٥م، والذي وصف فيه المجتمعات غير الأوروبية بالهمجية والبدائية[١].

إن خلاصة الفكر الغربي في هذا الجانب هي نسبة جميع الفضائل إلى الغرب، في مقابل نسبة الرذائل جميعها إلى الشعوب الأخرى المراد غزوها، إنها المصالح التي تجعل الفكر تابعاً يختلق المبررات.

فهذه النظريات التي تستند إلى كتابات تدعي أنها علمية؛ قام بوضعها علماء إنثروبولوجيا أوروبيون، فتُرجمت وشُرحت ووزعت، فكان لهذه النظريات بالغ الأثر على مثقفي تلك الفترة بما فيهم المفكرون الأفارقة[٢]، فانبرى بعضهم للدفاع عن العرق الزنجي وتبرئته بنظريات أخرى عنصرية سوداء في مقابل العنصرية البيضاء.

ثالثاً: إدوارد بلايدن وأيديولوجية الشخصية الإفريقية:

كانت أولى المحاولات لمواجهة هذه الكتابات الأنثروبولوجية والإثنولوجية على يد الجراح الإفريقي «أفريكانوس هورتون» Africanus Horton (١٨٣٥-١٨٨٣م)، فقد نشر كتاباً في عام ١٨٦٨م بعنوان (دول وشعوب غرب إفريقيا البريطانية والسكان الأصليين، والدفاع عن العرق الإفريقي) West African Countries and Peoples, British and Native: And a Vindication of the African Race، مستخدماً خلفيته كجراح للرد على الحجج الأنثروبولوجية؛ لفضح التحيزات العنصرية ضد الأفارقة. بيد أنه قد سبق ذلك محاولة من باحث إفريقي شاب في عام ١٨٥٧م في كتابٍ نشره بعنوان (الدفاع عن العرق الإفريقي، دراسة موجزة للحجج التي تدعي دونية العرق الإفريقي) A vindication of the African race: being a brief examination of the arguments in favor of African inferiority، وهو الدكتور «إدوارد بلايدن» Edward W. Blyden (١٩٣٢-١٩١٢م)، والذي استخدم الروايات التاريخية لإظهار الكرامة الإنسانية للأفارقة، ليكون فيما بعد أول مفكر إفريقي يستخدم مصطلح «الشخصية الإفريقية»[٣].

كان إدوارد بلايدن زنجياً، ولد في سان توماس عام ١٨٣٢م، هاجر إلى نيويورك في عام ١٨٤٧م، للدخول إلى الجامعة، لكنه تم رفضه من قِبل إحدى الجامعات الأمريكية بسبب لونه، فهاجر إلى ليبيريا في إفريقيا عام ١٨٥٠م ليصبح سياسياً ومنظراً رائداً في دراسة «الشخصية الإفريقية»، فقد كان يرى أنه: «لا يستطيع أحد فهم وتفسير شخصية

(١) حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ علم الإنسان (الكويت: عالم المعرفة، فبراير ١٩٨٦)، ص (١٠٣-١٠٤).

(٢) أحمد، حسن إبراهيم، استمرارية التاريخ ما بين صدام المصالح وحوار الحضارات، المنهل للطباعة والنشر، دمشق: دار مؤسسة رسلا، ٢٠١٦م، ط١، ص١٥.

(٣) Momoh, Abubakar. "Does Pan-Africanism Have a Future in Africa? In Search of the Ideational Basis of Afro-Pessimism." African Journal of Political Science / Revue Africaine De Science Politique, vol.8, no.1, 2003, p.43.

الإفريقي إلا إفريقي مثله»[١].

استخدم بلايدن في أدبياته مصطلح «شخصية العرق الزنجي» Character Of The Negro Race، وظل يستخدمها حتى طورها إلى مصطلح «الشخصية الإفريقية» في عام ١٨٩٣م في محاضرة بعنوان «الدراسة والعرق» Study and Race، وقد سبق ذلك بعامين مطالبة بلايدن بكنيسة إفريقية مستقلة في ١٨٩١م[٢]. خاطب بلايدن الحضور بكلمات تدعو للفخر بالعرق الزنجي: «دعونا نتخلص من مشاعر العرق، دعونا نتخلص من شخصيتنا الإفريقية ونفقدها- إذا كان ذلك ممكناً- لصالح عرق آخر... لكن الحقيقة أننا جئنا إلى هذا الكون كأفارقة، فليس هناك مجال لأن نكون شيئاً آخر»[٣].

وأكد في خطابه أن هناك «مستقبلاً كبيراً ينتظر العرق الزنجي»[٤]؛ فقد كانت أسفاره ووجوده في إفريقيا، ومنشوراته العديدة، ومحاضراته، قد ساهمت في إعطائه صورة عن الشخصية الإفريقية؛ بوصفه كاتباً زنجياً وأستاذ ودبلوماسياً فرض وجوده وتأثيره[٥].

رأى بلايدن أن «الدين الإسلامي» قد ساعد في تنمية «الشخصية الإفريقية»، وكذلك تطهير وتنقية العادات الإفريقية

وتركزت فلسفة بلايدن في فكرة وجود شخصية إفريقية مميزة، فقد دفعته دراساته بعمق إلى الكلاسيكيات، حيث أتقن اللغة اليونانية واللاتينية والعبرية، مما جعله مُلماً بتاريخ العالم القديم، ظهر ذلك في قدرته على إجراء تحليل أدبي للنص الإنجيلي بسهولة؛ ودراسة النصوص التوراتية التي تناولت الزنجي في بعض النصوص، بينما أشار إلى أمثلة من العصور القديمة للإنجازات الإفريقية وإسهاماتها في الحضارة البشرية، كما أنه رفض الاعتراف بتفوق الرجل الأبيض، وأصر على أن التخلف الإفريقي كان بسبب الرق؛ وأنه لولا تجارة الرقيق، التي مارسها الرجل الأبيض خلال استعماره للعالم الجديد، لما تعرضت إفريقيا للحرب الداخلية والانقسام السياسي والكساد الاقتصادي، الذي جعل من الصعب على المؤسسات والثقافة الإفريقية أن تزدهر[٦].

(١) Shepperson, George. “Notes on Negro American Influences on the Emergence of African Nationalism.” The Journal of African History, vol.1, .no.2, 1960, pp.299–300

(٢) Lynch, Hollis R. “Edward W. Blyden: Pioneer West African Nationalist.” The Journal of African .History, vol.6, no.3, 1965, p.382

(٣) see Wilson, Henry Summerville. Origins of West African Nationalism. Springer, 2016. .pp.249-253

(٤) Esedebe, P.O. “Origins and Meaning of Pan-Africanism.” Présence Africaine, no. 73, 1970, .p.124

(٥) Irele, Abiola. “The Correspondence Of Edward Wilmot Blyden (1832-1912).” Présence Afric-.aine, no.114, 1980, p.187

(٦) July, Robert W. “Nineteenth-Century Negritude: Edward W. Blyden.” The Journal of African .History, vol.5, no.1, 1964, pp.74-75

واستطاع بلايدن وضع نظريته الخاصة حول الشخصية الإفريقية، ويُعتبر كتابه (المسيحية والإسلام والعرق الزنجي) Christianity, Islam and the Negro Race هو الأهم من بين كتاباته؛ فقد حوى القدر الأكبر من أفكاره عن الشخصية الإفريقية، ويُعد بلايدن الكاتب الأكثر غزارة في غرب إفريقيا في الفترة بين عامي ١٨٥٩م و١٩١٢م، حيث كان جمهوره من إفريقيا وخارجها؛ فهو خطيب مقنع يختار عباراته بدقة، ومبشر ودبلوماسي وموظف مدني وتربوي وصحافي وكلاسيكي، وقبل كل شيء أحد مؤسسي أيديولوجية «الشخصية الإفريقية»[١]، وقد كان لأفكاره حول كرامة السود وتأكيده لواقع الشخصية الإفريقية تأثير أيديولوجي وسياسي كبير في جيل من الأفارقة داخل القارة الإفريقية وخارجها[٢].

كان بلايدن يعتقد كذلك أن التعليم الغربي من شأنه أن يقضي على الشخصية الإفريقية، فطالب بجامعة إفريقية بدلاً من ذلك، وأراد أن تتم رعايتها من قِبل السود كجزء من استعادة احترام الذات الثقافية الإفريقية.

واستند في فلسفته للشخصية الإفريقية على خمسة محاور رئيسة، وهي:

- أن للعرق الزنجي إنجازات سابقة تُحسب له، وأن إفريقيا هي القارة التي سيُعيد فيها الأفارقة والزنوج من الولايات المتحدة وجزر الهند الغربية إحياء عظمتهم.
- وأن إفريقيا تمتلك مؤسسات اجتماعية فريدة من نوعها، وبخاصة المجتمع الأنسب للسمات المميزة للقارة.
- وأن العمل الجماعي، وتوزيع الإنتاج حسب احتياجات الشعب، هي مُثُل اشتراكية يطبقها المجتمع الإفريقي في مجال الإنتاج.
- وأن الأسرة الإفريقية الممتدة وتعدد الزوجات أفضل حل للمشكلات الاجتماعية.
- وأن الأفارقة يتمتعون بقدرات متأصلة تميزهم عن جميع الشعوب الأخرى.

وجميع هذه المحاور تشكل «الشخصية الإفريقية»[٣].

كما قد عارض بلايدن الحضارة الغربية الحديثة؛ والتي كانت من وجهة نظره حاملة لـ«سموم العرق»، وعاد إلى الحضارات اليونانية واللاتينية والفرعونية ككلاسيكيات يمكن أن تُغذي إفريقيا فكرياً دون عنصرية.

وكان بلايدن من أوائل المدافعين عن الترويج للغات الإفريقية والأغاني الإفريقية والتقاليد الشفهية الإفريقية كجزء من التعليم العالي. وقد ردد القس «جيمس جونسون» James Holy Johnson (١٨٣٦-١٩١٧م) - من سيراليون- أفكاره، وطالب بمؤسسة إفريقية للتعليم العالي «يتمتع فيها الإفريقي بخصوصيته بدون إزعاج من الرجل الأوروبي»[٤].

وانتقد بلايدن البعثات التنصيرية الأجنبية،

(١) Ayandele, E. A. "James Africanus Beale Horton, 1835-1883: Prophet of Modernization in West Africa." African Historical Studies, vol.4, .no.3, 1971, p.694

(٢) Campbell, Horace. "The Rastafarians In)) The Eastern Caribbean." Caribbean Quarterly, .vol.26, no.4, 1980, p.43

(٣) M. Yu Frankel, ‹Edward Blyden and the Concept of African Personality›, African Affairs, 73 .(292) (1974), pp.277-289

(٤) Wandira, Asavia. «The African University in .Development.» (1978), p.40

واتهمها بأنها تسعى إلى فرض الطابع الأوروبي على الأفارقة، وحث بلايدن على إنشاء كنيسة إفريقية مستقلة وغير طائفية[١].

كما رأى بلايدن أن «الدين الإسلامي» قد ساعد في تنمية «الشخصية الإفريقية»، وكذلك تطهير وتنقية العادات الإفريقية من عناصرها الوثنية والمُريعة، كما شجع على الامتناع عن ممارسة الجنس خارج إطار الدين، ودعا إلى تعزيز الصناعة، وعمل على تقديم المنح الدراسية.

كما أن «الدين الإسلامي» رفض العنصرية، ودعا إلى المساواة، وأبقى على معظم العادات والمؤسسات الإفريقية، فاستوعب الكُل ووحدهم من خلال تجاوز الانقسامات القبلية. علاوةً على ذلك ضمن حرية العقيدة، وسمح للسود بتولي مقاليد السلطة والقيادة، وهو ما أشار إليه بلايدن: بقوله «محمد- صلى الله عليه وسلم- في إفريقيا ترك الإفريقي سيداً على نفسه ووطنه، وحينما تمكنت المسيحية من ترسيخ وجودها في إفريقيا استولى الأجانب على البلاد، وحكموا السكان الأصليين بصرامة شديدة»[٢].

وعلى الرغم من أن مفهوم «الوحدة الإفريقية» لم يكن قد تبلور في صياغته النهائية في تلك الفترة؛ فإن الأفكار الأساسية كانت بالفعل قد تشكلت من خلال جهود بلايدن لإنشاء جامعة في غرب إفريقيا، فقد كان يعتقد أن أعضاء هيئة التدريس يجب أن يكونوا حصرياً من الأفارقة والزنوج. كما أراد أيضاً إصلاح نظام تعليم الأفارقة بشكل أساسي، وهو ما جعله يطالب بضرورة التخلص من الكتب المدرسية الأوروبية التي تقدم الإفريقي على أنه «وثني أحمق». ورأى ضرورة تعليم الأفارقة كيفية التفكير وليس التقليد[٣].

إلى جانب ذلك؛ كان بلايدن مقتنعاً بأن التحول الجذري فقط في نظام التعليم من هذا النوع سيؤدي إلى تشكيل «الفكر القومي»، حيث ادعى أن الأوروبيين كانوا مخطئين حين اعتقدوا أنه لإتقان إنجازات الحضارة كان على الأفارقة تقليد الأوروبيين. وعلى الرغم من اعترافه بإنجازات الثقافة الأوروبية؛ فإنه عاد وقال- على حدّ تعبيره- بأنه: «يجب أن نُظهر أننا قادرون على الذهاب بمفردنا، وشق طريقنا بأسلوبنا الخاص»[٤].

كانت نظرية «الشخصية الإفريقية» عند بلايدن أكثر من مجرد مفهوم ثقافي فريد؛ لقد كانت جزءاً لا يتجزأ من فلسفة شاملة، كانت أهدافها سياسية وتعليمية على حدٍّ سواء، فقد رأى أن التعرض للثقافة والتعليم من قِبل الأوروبيين قد دمر الثقة بالنفس عند الإفريقيين، وكذلك الإيمان بالقدرات الفطرية للشعوب الإفريقية. وبالنسبة له فإن إيقاظ الشخصية الإفريقية سيكون له عظيم الأثر على بقاء الأفارقة وتطورهم في المستقبل، لذا كانت محاولاته تنطوي على تطوير قاعدة فلسفية وثقافية إفريقية بحتة يمكن للأمة

(١) Reid, George W. “Missionaries and West African Nationalism.” Phylon (1960-), vol. 39, no. 3, 1978, p.231.

(٢) Billingsley, Andrew. “Edward Blyden: Apostle of Blackness.” The Black Scholar, vol. 2, no. 4, 1970, p.9.

(٣) Blyden, Edward Wilmot. Christianity, Islam and the Negro race. Black Classic Press, 1994, p.254.

(٤) Ibid., p.90.

الإفريقية أن تقف عليها[١].

واستطاع أكثر زعماء الفكر السياسي الإفريقي بعد بلايدن تبني وتطوير أيديولوجية الشخصية الإفريقية، فأعادوا اكتشاف أنفسهم بدلاً عن الهويات التي فُرضت عليهم، وأضفوا طابعاً رسمياً على بعض تلك المشاعر تحت مفاهيم: الوحدة الإفريقية pan Africanism، والزنوجة Négritude فيما بعد. وحولوا الاضطهاد والمعاناة التي عانى منها الإفريقي في ظل العبودية إلى حافز إضافي لتطوير الولاءات والتحالفات الجديدة، فأصبحت «إفريقيا للإفريقيين»، ونُظمت مؤتمرات الوحدة الإفريقية، وتمت الدعوة إلى إعادة تأهيل ماضي إفريقيا، والاعتزاز بالثقافة الإفريقية، والأمل في مستقبل إفريقيا المجيد. فتشكل جيل من القوميين الأفارقة دعوا إلى الاعتزاز والفخر بالشخصية الإفريقية في كتاباتهم وخطبهم؛ مثل: وليم ديبوا W. E. B. Du Bois (١٨٦٨-١٩٦٣م)، وماركوس جارفي Marcus Garvey (١٨٨٧-١٩٤٠م)، وجورج بادمور George Padmore (١٩٠٣-١٩٥٩م)، وكوامي نكروما Kwame Nkrumah (١٩٠٩-١٩٧٢م)، ويوليوس نيريري Julius Nyerere (١٩٢٢-١٩٩٩م)، وستوكلي كارمايكل Stokely Carmichael (١٩٤١-١٩٩٨م)، وغيرهم[٢].

رابعاً: نقد نظرية الشخصية الإفريقية:

تلقت نظرية الشخصية الإفريقية لبلايدن النقد والدعم؛ حيث اتهمه منتقدوه بأنه- على عكس تصريحاته المؤيدة لإفريقيا- كانت أفكاره عن الشخصية الإفريقية نتاجاً للحضارة الغربية.

ويؤكد منتقدوه أن آرائه حول العرق قد تم استقاؤها من كتابات هيجل G. W. F. Hegel (١٧٧٠-١٨٣١م)، وجوزيبي مازيني Giuseppe Mazzini (١٨٠٥-١٨٧٢م)، ويوهان هيردر Johann Gottfried Herder (١٧٤٤-١٨٠٣م)؛ المدافعين الأوروبيين عن الوحدة العرقية والقومية.

كما وقد وُجهت له انتقادات أخرى بأن نظريته للشخصية الإفريقية تشبه بشكل مثير للسخرية وجهات النظر العرقية التي يتبناها القادة البيض في جنوب إفريقيا لترسيخ الفصل العنصري؛ فهي تُؤسس لفكرة الفصل بين الأعراق كوحدات منفصلة، وقائمة بذاتها، ومعتمدة على الذات. لذا فإن بلايدن، الذي تكمن الشخصية الإفريقية في صميم فلسفته، تمحورت أفكاره حول الفروق العرقية، وهذا السبب نفسه هو الذي جعله يخضع لنقد كبير[٣].

وعلى الناحية الأخرى؛ تم الاحتفاء به كأول شخصية إفريقية حاولت ونجحت في صياغة فلسفة كاملة للشخصية الإفريقية، والتي لم تكن فقط جذابة لمعاصريه؛ ولكن للأجيال التالية من المفكرين الأفارقة أيضاً[٤].

(١) Shujaa, Mwalimu J., and Kenya J. Shujaa, eds. The SAGE encyclopedia of African cultural heritage in North America. Sage Publications, 2015, pp.187-188.

(٢) Harris, Michael D. "Confluences: Ile-Ife, Washington, D.C., and the Transafrican Artist." African Arts, vol.30, no.2, 1997, p.34.

(٣) Shujaa, Mwalimu J., and Kenya J. Shujaa, eds. Idem., pp. 187-188

(٤) LYNCH, Hollis R.: The Attitude of Edward W.

وعلى الرغم من تناقضاته؛ فقد أسَّس لصعودٍ فكريّ في غرب إفريقيا في نهاية القرن التاسع عشر، كما كانت أفكاره وتحليلاته وبراهينه، بالرغم من أنها كانت متعارضة أحياناً ورومانسية أحياناً أخرى، لا تزال هدفاً للباحثين في الشأن الإفريقي، ومرجعاً فكريّاً وسياسيّاً وتاريخيّاً[1].

ختاماً:

الشخصية الإفريقية ليست مجرد دعوة للتجديد الأخلاقي في مواجهة الشدائد؛ إنها اعتراف بميراث ثقافي وديني وأدبي راسخ، يسعى إلى إعادة إشعاله وسط عالم يسعى للعولمة وسلخ الإفريقي عن هويته الأصيلة، فالشخصية الإفريقية لها آثار على فهم الديمقراطية، فبينما يشيد الغرب بحكم الأغلبية كمعيار لقياس الديمقراطية؛ فإن الديمقراطية الإفريقية المستوحاة من الشخصية الإفريقية تراعي الأقلية، وينصب التركيز فيها على الإجماع كشكل من أشكال الديمقراطية، كما تعترف بتوافق الآراء، وبأن لكل شخص حقاً أصيلاً في الاستماع إليه.

والشخصية الإفريقية لها تأثير سياسي على إنهاء الاستعمار، كما قال يوهان جالتونج Johan Galtung: «لقد اتخذت شكلاً ظهر في موقفها الحازم من التحول الجذري للنظم التعليمية الغربية وأمور أخرى كذلك، فافترضت قرارات سياسية متسقة مع خطة المجتمع المراد إنشاؤه أو إعادة إنشائه»[2].

وتشهد الخطابات الفكرية الحالية، حول القيم الثقافية الإفريقية وطرق ممارسة الأعمال التجارية، على إدراك أن إفريقيا لا يمكنها التطور باستخدام الأطر الفكرية الغربية، وتشير العديد من المشكلات في إفريقيا، مثل الفقر والحروب والفساد والقتل، إلى الحاجة إلى نقلة نوعية جديدة داخل القارة، ولهذا السبب تقترح هذه الدراسة إجراء تحقيق عن الشخصية الإفريقية كوسيلة لفهم وتشكيل سلوك القيادة من أجل الأمن والتنمية في القارة.

إن التحدي القادم هو تحدي الإبداع؛ والذي يجب على الأفارقة المتعلمين والحكومات الإفريقية مواجهته؛ فالهدف الحقيقي من دراسة «الشخصية الإفريقية»؛ هو إنشاء وتأكيد هوية إفريقية مميزة من خلال الإبداع في جميع المجالات؛ في اللغة، والأدب، والفن، والفلسفة. وستبقى الدول الإفريقية الحديثة، ولسنوات عديدة قادمة، دولاً متعددة اللغات، لكن يمكننا تعزيز إحساسنا بالأمة، وتعزيز شعورنا بالفخر، واستعادة احترامنا لذاتنا وكرامتنا، إذا تعاملنا مع ذواتنا بطريقة إبداعية، وبطرق تركز في إفريقيتنا وشخصيتنا ■

Blyden to European Imperialism in Africa. In: Journal of the Historical Society of Nigeria, Vol. III, No.2, 1965, pp.249-260.

(١) ناصر كرم رمضان، «إدوارد بلايدن رائد القومية الإفريقية في غرب إفريقيا»، قراءات إفريقية، ع٤٧، يناير ٢٠٢١، لندن، ص١٢١.

(٢) See: Tripathi, Deepak. Imperial Designs: War, Humiliation & the Making of History. Potomac Books, Inc., 2013.